Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V :11, N° :02 – 20 Décembre 2021

سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 11، العدد 02 – 20 ديسمبر 2021

إتيقا المسؤولية اتّجاه البيئة من منظور هانز جوناس

The responsibility of the environment from the perspective of Hans Jonas

خليفة محمودي*

جامعة وهران 2 مُحَمَّد بن احمد، الجزائر(khelifafilo@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2021/09/15 ؛ تاريخ القبول : 2021/11/30 ؛ تاريخ النشر : 20 /12/ 2021

الملخص

بلغت أنانية الإنسان المعاصر اليوم مداها. نتيجة الاستغلال المفرط للطبيعة دون هوادة. ولعل المشاكل البيئية اليوم من تصحر وتلوث للمناخ، واتساع ثقب الأوزون. خير دليل على هذه الأنانية المفرطة حد الدمار. مما جعل المجال التداولي الفلسفي اليوم، يعود لمساءلة هذه الكارثة الكونية التي باتت تهدد الوجود الإنساني في نوعه. وحتم على الفلسفة اليوم إعادة طرح سؤال الإتيقا في مجال الكوسمولوجيا كضرورة لتجاوز خيبات الأمل للقرن المعاصر. جراء الاستغلال المفرط واللاعقلاني للطبيعة. وهذا ما ذهب إليه هانز جوناس وحاول إعادة بناء صرح إتيقي جديد لمسؤولية الإنسان اتّجاه البيئة (الكون). فهل وفق جوناس في هذا الطرح؟. وهل يمكن اعتبار إتيقا المسؤولية كما تصورها جوناس ضامن لتجاوز خيبات أمل الإنسان المعاصر للحفاظ عن البيئة؟.

الكلمات المفتاحية: هانز جوناس ، الإنسان، البيئة. الإتيقا.

Abstract

The selfishness of the contemporary person today reached its extent. As a result of excessive exploitation of nature unabated. Perhaps the environmental problems today from desertification and climate pollution, and the breadth of ozone hole. The best evidence of this excessive selfishness is destruction. This made the philosophical deliberative field today, due to the accountability of this global catastrophe that threatens the human existence of its kind. It was necessary for philosophy today to re -ask the exclusion question in the field of cosmology as a necessity to overcome the disappointments of the contemporary century. As a result of excessive and rational exploitation of nature. This is what Hans Jonas went to and tried to rebuild a new editorial edifice of man's responsibility for the environment (the universe). Is Jonas according to this proposal? Is it possible to consider the responsibility as perceived by Jonas, a guarantor to overcome the disappointments of the contemporary human hope to preserve the environment?.

Keywords Hans Jonas, Human, Environment, Equity..

* **الباحث المرسل:**

مقدمة:

بلغت أنانية الإنسان المعاصر اليوم مداها. نتيجة الاستغلال المفرط للطبيعة دون هوادة. ولعل المشاكل البيئية اليوم من تصحر وتلوث للمناخ، واتساع ثقب الأوزون. خير دليل على هذه الأنانية المفرطة حد الدمار. مما جعل المجال التداولي الفلسفي اليوم، يعود لمساءلة هذه الكارثة الكونية التي باتت تهدد الوجود الإنساني في نوعه. وحتم على الفلسفة اليوم إعادة طرح سؤال الإتيقا في مجال الكوسمولوجيا كضرورة لتجاوز خيبات الأمل للقرن المعاصر. جراء الاستغلال المفرط واللاعقلاني للطبيعة. وهذا ما ذهب إليه هانز جوناس وحاول إعادة بناء صرح إتيقي جديد لمسؤولية الإنسان اتّجاه البيئة (الكون). فهل وفق جوناس في هذا الطرح؟. وهل يمكن اعتبار إتيقا المسؤولية كما تصورها جوناس ضامن لتجاوز خيبات أمل الإنسان المعاصر للحفاظ عن البيئة؟.

أولًا: أخلاق البيئة.

لقد حاول هانز جوناس تجاوز الأخلاق بمعنها الضيق. والتي تعني احترام الآخر الإنساني فقط. إلى الأخلاق بمعناه الشامل. أي تعدى ذلك إلى الكائنات الجامدة. أو ما يجمله جوناس في إتيقا المسؤولية اتجاه البيئة. فنحن نعيش في كنف غير من نوع مختلف علينا الحفاظ عليه. من زاويتين. الأولى: أن البيئة ككائن جامد نحن ملزمون اتّجاهه بالاحترام، حتى يستمر الوجود. والثانية: أن البيئة هي ملك للغير الذي لم يوجد بعد. لذا وجب احترام حق هذا الغير الذي لم يوجد بعد.

ويجب أن نفرق منذ البداية بين البيئة بمعنها الكسمولوجي. وما تحتويه من مواد تساعد على الحياة. وبين أخلاق البيئة. التي هي أخلاق الأخلاق. فمن خلال هذه الأخيرة حاول جوناس بناء سرح إتيقي يحترم الآخر الذي لم يوجد بعد. فعندما نؤسس أخلاق تحترم البئية فنحن نحترم حق الغير من الأجيال القادمة التي لم توجد بعد. ولها الحق الوجودي أيضًا في الاستفادة من خيرات هذا الكوكب. ولهذا ينتقد جوناس السياسات العالمية التي لم تجعل قوانين صرامة لحماية البيئة. يقول: <<هناك موضوعات لم يتم التشريع لها. يجب أن تكون حاضرة داخل علم القانون، وهو ما سيضمن أن يكون عالم للأجيال القادمة>> (Jonas, 1984, p. 10) . وهذا ما حمله جوناس من خلال أخلاق

البيئة. التي هي في المقام الأول مسؤولية اتّجاه الأجيال القادمة. لذا كانت المسؤولية عند جوناس مسؤولية اتّجاه الوجود. أو أخلاق الوجود.

إن ما يهز مضجع جوناس هو الخطر الذي يهدد البيئة، جراء التطور التقني الذي يسعى له الإنسان المعاصر. والذي قد يقضي على البشرية جراء عدم التعقل والشعور بالمسؤولية. وأن النظرة التفاؤلية حد العمى لصاحب التقنية يجعل وجودنا كله في خطر. فالانخراط في التفاؤل، هو نتيجة انعدام إتيقا المسؤولية. فليس هناك دليل علمي قاطع أو منطقي يوضح أن العلم في المستقبل قد يجد كل الحلول، للسلبيات التقنية والتطور العلمي. وهو الشك الذي قال به هابرماس أيضًا جراء التطور التقني والعلمي. يقول هابرماس: <<ولكن عندما تنطلق التقنية من العلم وأعني بذلك التأثير في السلوك الإنساني، ليس بأقل من السيطرة على الطبيعة. عند ذلك يطالب احتواء هذه التقنية في عالم الحياة العملي، واسترجاع التحكم التقني للمجالات الجزئية في تواصل الناس الفاعلين حقًا بالتأمل العلمي. يصبح الأفق ما قبل العلمي للتجربة طفوليًا، عندما ينبغي أن يعاش الاحتكاك مع منتجات العقلانية الأشد توترًا بأسلوب ساذج في هذا الأفق>> . إن التأكد المفرط للعقل باحتواء التقنية في نظر هابرماس هو سذاجة أطفال ليس إلا. فالتقنية ليست محسومة النتائج، فتأثيرها في السلوك الإنساني كان عكسيًا في كثير من الحالات. وعكس ما هو متوقع. وهذا الرأي نفسه عند جوناس. والحل في نظره يكون من خلال إتيقا المسؤولية.

يرى جوناس أن الوعود التي أعطاها العلم (وخاصة عصر الأنوار). في حل مشاكل البشرية، وتقديم الأفضل قد باءت بالفشل. أو أصبحت لعنة تتطلب منا بعدًا أخلاقيًا (Jonas, : Le principe Responsabilité, Une éthique pour la civilisation technologique, ,1995, p. 15) . لأن العلم أنتج التقنية، والتقنية استعملت للسيطرة على الطبيعة والسيطرة على الإنسان وتدمير الكوكب. مما حول هذه الأمال والوعود إلى قنبلة موقوتة تهدد البشرية يوميًا.

فالتكنولوجيا المعاصرة فصلت الجانب الروحي على الجانب الجسدي. فهي تنظر إلى الحياة على أنها آلة. وهذا لب المشكلة. إلا أن جوناس يرى أن الحياة هي جسدية روحية. مما يبطل أي معارضة مدمرة بين المادة والروح (Grégoire, 2004; 2005, p. 170) . لذا على الإنسان المعاصر في نظر جوناس أن ينظر للحياة في بعدها الإنساني خارج دائرة الاختزال المادي الذي

للتقنية، والتكنولوجيا. لذا دعا جوناس إلى تأسيس الأخلاق إنطلاقًا من الجانب الوجودي في المحافظة على الكوكب. وهو في هذا يعود إلى أرسطو. وفي الوقت ذاته يناقض الثنائية الديكارتية التي فصلت بين الجسم والروح.

العداء بين الطبيعة والإنسان في نظر جوناس. قد استفحل منذ اللحظة الديكارتية التي أعلن فيها: على الإنسان أن يكون سيد لطبيعة ومالكها. بدل أن يكون صديقًا وفيًا لها. إن الثنائية الديكارتية في نظر جوناس جعلت الإنسان لا يحترم الطبيعة. وينعزل عن العالم الذي يحيط به . لأن الفكر الديكارتي على الطريقة الأفلاطونية، ميز بين الجسد والنفس. أي بين الروح والمادة. فإهتم بالروح (العقل) وأهمل المادة، أو أنقص من قيمتها. وهنا مكمن الكارثة في نظر جوناس. فالإنسان خدم ذاته وأهمل المادة. وبالتالي أهمل كل ما هو خارج الذات، فتولدت الذاتية والتعالي. وأهمل الطبيعة الخارجية. فجرَّ على الكوكب كوارث لا حصر لها.

إن فلسفة جوناس قلبت التفكير الغربي في النظر إلى الطبيعة على أنها ضمن الأشياء التي يسعى الإنسان إلى السيطرة عليها، كما بشر بذلك عجوز الفلسفة ديكارت. أو أن الإنسان يسعى إلى تسخير الطبيعة في خدمته وجعله سيدًا عليها. مثلما قال بذلك هيجل عندما رفض الحركة الداخلية للطبيعة . إلا أن نظرة جوناس كانت مختلفة تمامًا وكانت مثل ثورة كوبرنيك في الفلك. وذلك عندما نظر للطبيعة بوصفها ذاتًا. وتصبح الطبيعة هي الآخر الذي يجب احترامه. وبذلك يحيلنا جوناس على غيرية شاملة لا تنظر إلى الغير على أنه الآخر الإنساني فقط. وإنما تشمل الطبيعة أيضًا. وبذلك كانت فلسفة جوناس ثورة في مجال الإتيقا والغيرية المعاصرة.

حيث نجد جوناس يدافع عن الإنسان، وينتقد الإنسان. يدافع عن الإنسان الذي لم يوجد بعد، وتحمل المسؤولية اتّجاهه. من خلال الحفاظ عن البيئة التي هي مآلنا المشترك. وينتقد الإنسان الحالي صانع التقنية. والمتسبب في ضرر للبيئة. مما يعطي فلسفة إيكولوجية جديدة تقوم على إتيقا المسؤولية. وهذا يوحي بنوع من الربط بين الإنسان والطبيعة من خلال تحمل المسؤولية اتّجاههما، وناتج في نظر جوناس على مآلنا المشترك. يقول: <<إن مستقبل الطبيعة لا يجب أن يفهم على أنه منفصل عنا>> . ما يعبه جوناس عن الأخلاق القديمة أنها اهتمت بجانب واحد فقط. وهي علاقة الإنسان بالإنسان الحاضر. وأهملت علاقة الإنسان بالأجيال القادمة وعلاقته بالبيئة.

لذا حاول جوناس زج الغرضية في البيئة باعتبارها ذاتًا. "وبإدخال يوناس للغرضية في الطبيعة، ينتفى الأساس الوجودي لغطرسة الأنا المتعالية في العالم، التي تنظر لنفسها على انها الوحيدة التي تمتلك الوعي والفكر والقيمة، في حين تنظر إلى باقي المخلوقات على انها موضوع لتقيمها. فالروح الإنسانية المتعالية على العالم قد أعطت لنفسها كل الكرامة، في حين جردت العالم من أية قيمة" (نسيم، 2009، صفحة 94) . وهذا التجريد للبيئة من كل كرامة نتيجة التعالي للذات الديكارتية. جعل البئية تتنتهك من طرف الإنسان.

وهذه الكارثة هي ما سرح بها أيضًا موران. ودعا على طريقة جوناس إلى مصادقة البيئة بدل استغلالها بلا هوادة. يقول: <<إن السياسة البيئية مكون لسياسة المؤانسة لكنها لا تشكل مجموعها. والمؤانسة تتظمن مودّة تربط شخصًا بشخص وتتضمن مشاركة ومشاطرة الغير – الجار أو القريب أو الزائر – في متعه ولذاته وآلامه. والنضال ضد التشرذم وتلاشي الهويات، وتنامي البعد التقني المكتبي. هو في حد ذاته نضال من أجل بناء المؤانسة أو إعادة بناءها>> . فسياسة البيئة قائمة على احترام البيئة ككائن. وهذا الاحترام يعود على الغير لأنه يسكن نفس الكوكب الواحد. فهي تنمي فكرة المؤانسة الإنسانية التي هي قيم غيرية. لذا فإن موران يدعو إلى سياسة حضارية. تقوم على العديد من المداخل في مقدمتها احترام البيئة، ككائن يعيش في ظله الغير، الذي يشاركني الوجود نفسه.

"إن فكرة النظر إلى الطبيعة باعتبار أنها الآخر تتطلب تجاوز النظرة الإنسانية الضيقة التي تتمركز حول الإنسان، وتضعه على قمة سلم الموجودات" . إن جوناس أعاد بناء جسر العلاقة بين الإنسان والطبيعة، الذي أفسدته الفلسفة الديكارتية، التي دفعت الإنسان أن يكون سيدًا على الطبيعة لا صديقًا لها. وهنا بدأت مشكلة العلاقة في الفساد. لهذا يقلب جوناس فلسفة ديكارت من أسياد على الطبيعة ومالكيها إلى أصدقاء مع الطبيعة ومحترميها. لهذا تعتبر غيرية جوناس نقد للفلسفة الغربية التي ولدت فلسفة الأنا، والسيطرة بدل الصداقة والاحترام مع الطبيعة والآخر.

وهذا ما يوضحه قول جوناس: <<افعل بحيث يتلاءم نتائج فعلك مع ديمومة حياة إنسانية أصيلة على الأرض>> (Jonas, : Le principe Responsabilité, Une éthique pour la civilisation technologique, ,1995, p. 45). هذا القول يوحي بفلسفة جديدة، حيث أن

مهمتها عند جوناس أن تقول لنا ما العالم المادي الذي يجب على الإنسان أن يعقد علاقة سلام معه . تسعى إلى التوفيق بين فعل الإنسان والحفاظ على البيئة. ويبدو أن هانز جوناس هنا يسير على خطى الرواقية في العيش في وفاق مع الطبيعة. لأن التطور التقني والاستعمال السيئ للعلم والتكنولوجيا. جعل الإنسان يقع في ذئبية هوبز. فلم يتوقف الإنسان على أنه ذئب لأخية الإنسان. وإنما تعداه إلى أن يكون ذئب للطبيعة التي تحميه. وهذا أدى إلى اضطرابات إيكولوجية، أفزعت مضجع الفلاسفة. وفي مقدمتهم جوناس. لذا دعا إلى التحلي بالمسؤولية اتّجاه الطبيعة والإنسان معًا.

ففلسفة البيئة وفق هذا المقتضى الجوناسي. تطرح إشكالية العلاقة بين العلم والأخلاق. حيث أن الأول: يدعو إلى صنع التقنية والتمتع بها، وهو سبب تدمير البيئة. والثاني: (الأخلاق) تدعو إلى الحفاظ على البيئة. وهذا يوحي عند الكثير من الناقدين عن وجود تعارض بين العلم والأخلاق. لكن في الحقيقة هذا الحكم يتصف بالسطحية. لأن العلم لا يعارض الأخلاق، لأنه ليس له فعل في ذاته. فالذي يوجه العلم هو العالم. سواء إلى الخير أو الشر. فالذي ضد الأخلاق هو موجه التقنية وليس العلم. لأن العلم ليس له فعل خير أو شرير في ذاته. ولذا جعل جوناس الحل في إتيقا المسؤولية.

ثانيًا: إتيقا المسؤولية وغيرية اتّجاه كائن لم يوجد بعد.

لا بد لنا منذ البداية أن نعلن بما لا يدع مجال للخلط. أن جوناس لم يتكلم عن المسؤولية بمعنها التقليدي. ولم يقف عند حدود المسؤولية الأخلاقية. وإنما تعداها إلى إتيقا المسؤولية، أي الشعور بالمسؤولية. حيث تعني الأولى: (المسؤولية، Responsabilité)، وفق صليبا التبعة، والمسؤول من الرجال هو المنوط به عمل تقع عليه تبعته. وتنقسم المسؤولية إلى مسؤولية مدنية، فهي التي توجب على الفاعل الذي يسبب لغيره ضررًا، أن يعوضه منه. ومسؤولية جنائية فهي تقع على الشخص ارتكب مخالفة أو جنحًا أو جريمة. وهو ما يحدده القانون. ومسؤولية أخلاقية فهي الناشئة عن إلزامية القانون الأخلاقي. وعن كون الفاعل يتمتع بالحرية وذا إرادة حرة . فالمسؤولية وفق هذا الطرح الحقوقي. قد فصل فيها القانون. وليست هي مطلب جوناس.

أما الثانية: (المسؤولية الأخلاقية. morale Responsabilité). هي المسؤولية الناشئة عن إلزامية القانون الأخلاقي. أو عن كون الفاعل ذا إرادة حرة. ومعنى ذلك أنّ الفاعل الذي تكون أفعاله

ضرورية أي الناشئة عن أسباب طبيعية. أو مسيرة بإرادة غيره. لا يعد مسؤول من الناحية الأخلاقية . إنّ جوناس لا يكتفي بالمسؤولية الأخلاقية على الطريقة الحديثة. إذ يعتقد أنّ الأخلاق الحديثة أقيمت من أجل العصر الحديث. لكن التطور التكنولوجي، والتغير في وتيرة الحياة. جعل الأخلاق الحديثة والكلاسيكية، غير قادرة على مواجهة مسائل اليوم. لذا وجب تغيير الأخلاق. لأنّ التكنولوجيا قد تغيرت. والأخلاق التقليدية لم تعد كافية في حل مشاكل الإنسان المعاصر .

وأما الثالثة: وهي الشعور بالمسؤولية (Sentiment de Responsabilité). وهي مطمح جوناس. لأن الإنسان الذي لا يشعر بالمسؤولية قد يتملص منها في حال غياب الضابط أو الرقيب. في حين أن الشعور بالمسؤولية هو سلوك يرافق الذات في كل محطاتها. حيث أن الشعور بالمسؤولية "يطلق على إدراك الفاعل لقيمة عمله وعزمه على الاضطلاع به. ولهذا الشعور بالمسؤولية جانبان، أحدهما متعلق بالماضي وهو شعور المرء بالأخطاء التي ارتكبها في بعض مراحل حياته. والآخر بالمستقبل، وهو شعور المرء بوجوب اضطلاعه ببعض الأعمال المنتظرة. وإقدامه على تحصيل بعض النتائج المرجوّة" . وهذا ما يؤسس له جوناس من خلال شعور المرء بالمسؤولية اتّجاه المستقبل. واتّجاه أجيال لم توجد بعد.

إتيقا المسؤولية وفق جوناس هي أخلاق صوب الغير، الذي لم يوجد بعد. فهي أخلاق شعور الذات بالمسؤولية اتّجاه الغير في لحظة الغياب، وليس في الحضور. وهنا يتجاوز ليفيناس. فحضور الشخص أمامك قد يجعلك تستحي منه. لكن عند غيابه قد لا تحترم غيريته. في حين أن جوناس يؤسس لإتيقا تحترم الغير في كل لحظة. "والخير بهذا المعنى هو العنصر الأساسي للأخلاق. وبهذا تكون قد دخلنا عصرًا أخلاقيًا جديدًا حيث تعتبر المسؤولية قيمة القيم. وبهذا فهي مبدأ لتأسيس تصور جديد للأخلاق التي أصبحت ضرورية" (زهية، دت، صفحة 467) . وعلى هذا فإن جوناس يتجاوز الطرح الكلاسيكي، الذي يرى الخير في ذاته. إلى أخلاق الغير كغاية. انطلاقًا من الشعور بالمسؤولية، واعتبارها قيمة القيم. فأنت مسؤول في نظر جوناس على كل شيء إزاء الأجيال القادمة. وكأن جوناس هنا يجعل من المسؤولية واجب أخلاقي. فهو على الطريق الكانطي. "اعمل دائمًا بحيث تكون نتائج فعلك غير مدمرة لإمكانية حياة مستقبلية" (زهية، دت، صفحة 468) .

فتنظير هانز جوناس لإتيقا المسؤولية في نظر جاكلين روز يعود إلى منابع قديمة، لكن وفق نظرة جديدة. فهو يعود إلى المسؤولية الأفلاطونية. التي تعود بدورها إلى المسؤولية نحو الكائن المتعالي. فهي تتجه نحو الأبدية وليس نحو الزمان الحاضر كما فعل ليفيناس. لكن جوناس يتجاوز هذا الطرح العرضي نحو الكائن المتعالي في المثالية الأفلاطونية. إلى جعل المسؤولية تسير عبر الزمان لا المثال. مسؤولية اتّجاه كل الأجيال في الحاضر والمستقبل. إنها ليست مشروطة بطابع معين لكائن بعينه. تقول روز: <<وعلى هذا فإن يوناس يرجع إلى مبدأ مسؤولية جد قديم ويحوره تحويرًا عميقًا. إن مسؤولية الأخلاق النظرية المعاصرة تتناول الزمان، وليس الأبدية، على خلاف الفلسفة الإغريقية>> . إن المسؤولية عند أفلاطون تنشد المثل العليا في عالم مثالي. لكن جوناس عاد إليها كتطلع أخلاقي لكنه تجاوزها، من خلال ربط المسؤولية بالواقع لا بالميتافيزيقا (المثال). فقد عاد إلى المبدأ. لكن غير الأسس.

وفق هذا نجد روز تقول: <<ونحن نجدها وقد تغيرت تغيرًا كبيرًا في الآفاق المعاصرة. وعندئذ تكف المسؤولية عن أن تتناول الحاضر. بل المستقبل المباشر. المسؤولية صارت في نظر (هانز يوناس) تمتد إلى حد بعيد جدًا>> . فالمسؤولية في الفلسفة المعاصرة وخاصة مع جوناس. لم تقف في الحاضر فقط. كتحمل المسؤولية اتّجاه شخص بعينه. وإنما تعدته إلى تحمل المسؤولية في المستقبل. "ويشدد يوناس هنا على فكرة المستقبل بوصفه موضوعًا للمسؤولية الأخلاقية" (نسيم، 2009، صفحة 2015) . ذلك أن أفعال الإنسان في الحاضر في نظر جوناس تؤثر عن المستقبل. لذ جعلها أخلاق إزاء هذا المستقبل الذي نؤثر فيه. فهذه الحركية والأفعال من طرف الإنسان تؤثر على المستقبل وخاصة في مجال البيئة التي هي ملك للجمع. وبما أن الإنسان هو الذي يفعل، جعله جوناس منوط بهذه المسؤولية.

هذا التحمل للمسؤولية في المستقبل عند جوناس. نجد معالمه عند كارل بوبر، عندما صرح قائلًا: <<المستقبل مفتوح ومتعلق بنا جميعًا. إنه متعلق بما تفعله وأفعله ويفعله غيرنا من الناس، اليوم وغدًا وبعد غد. وما تفعله وما سنفعله متصل هو الآخر بفكرنا ورغباتنا وآمالنا وتخوفاتنا. بتعبير آخر إنه متصل برؤيتنا للعالم وبحكمنا وتقديرنا للإمكانيات الكبيرة والواسعة والمفتوحة التي يحملها

لنا المستقبل>> . وفق هذا القول لبوبر فإن جوناس لم يحد عن مفهوم بوبر للمسؤولية قيد أنملة. فكل منهما ينظر للمسؤولية على أنها الشعور بتحمل المسؤولية إزاء المستقبل والأجيال القادمة.

فجوناس على طريقة بوبر يحس بالثقل الكبير الملقى على عاتق البشرية في تحمل المسؤولية حيال المستقبل البعيد للإنسانية. حيث يقول بوبر: <<هذا يعني أنّ علينا مسؤولية كبيرة تكبر وتعظم عندما تعني الحقيقة التالية: نحن نعرف شيئًا: أو في أحسن الأحوال، نحن نعرف القليل من الأشياء بحيث نضطر إلى تقديمها بأنها لا شيء. إنها لا شيء مقارنة بما يجب معرفته حتى نتخذ القرارات الصائبة>> . فالثقل بالمسؤولية عند بوبر كبير جدًا. وخاصة أن المرء مطالب بمعرفةٍ أكبر، حتى يتخذ قرارات صائبة أكثر. فعلى الإنسان أن يكون أكثر جدية في تحمل المسؤولية إزاء المستقبل. عندما يقرر في الحاضر. لأن الحاضر يؤثر ويؤسس للمستقبل. لذا جعل بوبر ثقل المسؤولية كبير جدًا.

فالمستقبل مفهوم حاسم في تفكير هانز جوناس. ومن هذا الأفق تظهر أخلاقيات المستقبل. ويتعلق الأمر بتمديد قوة العقل العملي على المدى البعيد. بما يتجاوز الحدود الزمنية للحياة الفردية . حيث أن أخلاق المستقبل عند جوناس محكومة بعلاقة جديدة خارج دائرة الفردانية. وتتعلق بعلاقة جديدة مع الكون والأجيال القادمة.

حيث "يتم تحديد المسؤولية عند جوناس وإثارتها من خلال الخوف العميق، من تدمير الظروف المعيشية للوجود البشري التي غرسها التقدم التكنولوجي غير المناسب، والذي يهدد الآن" . إن بداية ونهاية المسؤولية عند جوناس هما طرفا الدائرة نفسها حيث النهاية هي البداية. انطلاقًا من زاوية الخوف. فالإنسان يخاف على المستقبل. وفي الوقت ذاته يخاف من الإنسان. وبالتالي كما يرى جوناس تحمل المسؤولية اتّجاه خطر المستقبل من الإنسان التقني.

الخوف ذاته من المستقبل نجده عند هابرماس. حيث أن هذا السؤال إزاء المستقبل والإجابة عن الحياة السعيدة لطالما أرق هابرماس. حول إمكانية استمرار الجنس البشري جراء الاستعمال العلمي والتقني السيئ. عندما صرح قائلًا: <<ماذا يفعل الإنسان بالزمن الذي قدر له أن يعيشه؟ هذا هو السؤال الذي أكاد لا أعيه، إنه سؤال يثيرني نقط؟>> . هذا الخوف من المستقبل ناتج عن جانبين.

أولها الشعور بالمسؤولية. وثانيها: عدم التأكد من النية الطبية للإنسان الحالي. وكذا استعمال التقنية المفرط في تدمير البيئة والإنسان معًا.

فالمسؤولية إزاء المستقبل، نتيجة الخوف من التقنية أخذها جوناس من راسل. حيث دعا راسل إلى تجاوز خيبات الأمل التي تلوح في الأفق جراء السلاح النووي. و استعمال العلم لأغراض لا أخلاقية. ودعا إلى عظمة السعادة في المستقبل التي يجب أن نخلقها للإنسانية. في كتابه "هل للإنسان مستقبل"، "Has Man a future by". الذي اعتبره توينبي من أعظم الكتب في هذا المجال بقوله: <<والواقع أن النمط الأساسي في هذا الكتاب الذي ألفه لورد رسل، هو ذلك الإهتمام – المخلص النابض – بالمحافظة على الجنس البشري، وهو عنيف في انتقاده الشديد لشرور الإنسان وغبائه. وأي مرمى يستحق سهامه أنسب من المسلك الحالي الذي تسلكه الدول النووية>> (توينبي، 1969، صفحة 8) . إن راسل يدعو إلى تجاوز الغباء الإنساني الحالي في تدمير البشرية، نتيجة تتبع المصالح الضيقة السياسية والاقتصادية. ذلك كله تحت لواء الاستعمال السيئ للعلم والعلماء. ولهذا يدعو البشرية إلى التوجه إلى المستقبل بنبل أكبر، اتجاه بعض. واتجاه البشرية جمعاء.

حيث يعلق توينبي قائلًا : <<وكان من بين الخدمات الجليلة التي أدها لورد رسل في هذا الكتاب، أنه جعلنا ندرك بجلاء التناقض البيّن بين جسامة الأخطار التي تسببنا فيها. وسخف المصالح القومية التي نتقاتل من أجلها. مصالح ستفنى مع فناء كل شيء آخر. وذلك إذا تمت تصفية الجنس البشري. وهو يبحث عن الجذور النفسية لهذا الجنون، فيجدها في رعونتنا>> (توينبي، 1969، صفحة 10) . إنّ الرعونة الإنسانية في العداوة اتجاه بعض، وتقديم المصالح الضيقة للفرد والجماعة على الإنسانية. لجديرة بأن تقتل كل ملامح المستقبل المنشود للجنس البشري. والعيش في سلام.

فجوناس ينتقد التطور التقني في شقه السلبي على طريقة راسل. وسلبية الأداة كما فعل هيدغر. ويتفق مع النظرة التشاؤمية للجيل الأول لمدرسة فرانكفورت من التطور التقني. وتحول العقل الإنساني إلى أداة يستعمل في التصنيع واستغلال الإنسان للإنسان. فهو نفس الخوف الذى اعترى هوركهايمر وأدورنو من الأداتية. وبما أن الإنسان هو صانع الأداة وهو المستعمل. لا بد أن يكون مسؤولًا على نتائجها. لذا ذهب جوناس صوب إتيقا المسؤولية كمعادلة لتجاوز هذه الهوة والتحكم في

التقنية. لأنها أصبحت الوجه السيئ للتطور العلمي غير المحدود على الطبيعة بصفة عامة، وعلى الإنسان بصفة خاصة.

جوناس كما قلنا سابقًا بحث عن مسؤولية إزاء الوجود الإنساني. وهنا يعود إلى سؤال راسل، عندما تساءل عما يمكن أن يحدث في المستقبل جراء امتلاك الأسلحة النووية والقنبلة الذرية، نتيجة استعمالها في الحرب يقول: <<هل من الممكن لمجتمع علمي الاستمرار في الوجود ، أم أن من المحتم أن يجر هذا المجتمع الخراب على نفسه؟>> . ليجيب راسل أنه سيحدث الخراب وتنتشر الجثث في كل مكان؛ إذا تجاوز الإنسان الحد المعقول والإنساني. علينا أن نوقف الحرب ونحايد الاستعمال المتطرف للعلم. علينا أن نكون حذرين إزاء هذا التدمير الذاتي للبشرية، من أجل مستقبل أكثر سعادة وأكثر إنسانية.

نجد جوناس يؤسس للأخلاق المستقبل على طريقة راسل. وكذا ينحو منحى كانط في القول بعالمية الأخلاق. لكن يختلف عنه في أنه يحاول تأسيس الأخلاق على أساس وجودي، وليس على أساس ذاتية الأخلاق عند كانط. فتصبح المسؤولية واجب حتمي اتّجاه الوجود البشري . ذلك أن كانط قال "عامل الناس في شخصك حيث يصبح عملك قانونًا عالميًا". فكانط هنا ينطلق من الذات ليؤسس للعالمية. إلا أن جوناس يسعى إلى العالمية مثل كانط، إلا أنه يبتعد عن الذاتية، من خلال تحمل المسؤولية اتّجاه الإنسانية والمستقبل. انطلاقًا من مسلمة الحفاظ على الوجود للآخرين. وبالتالي فإن الواجب الكانطي يضيف عليه جوناس التصرف بطريقة الديمومة في المحافظة على حياة حقيقة للبشرية على الأرض.

وهذا يوحي في نظر جاكلين روز، أن جوناس يريد أن يؤسس مبدأ أخلاقي واقعي بعيد عن الطوباوية، سواءً عند بيكون أو ماركس أو أرنست بلوخ. فالأول: دعا إلى السيطرة على الطبيعة من خلال امتلاك المعرفة، وهذه السيطرة دون ضابط قد تتحول إلى كوارث. وأما الثاني: فإنه جعل من الإنسان مركز الوجود، وميز بين الإنسان ما قبل الثورة وما بعدها. وأن الإنسان الحقيقي هو إنسان الثورة والتمرد. وأما الثالث: فيسير على خطى ماركس في الحديث عن مبدأ الأمل في سيادة الإنسان. وأن الواقع الإنساني لم يتحقق وعلينا أن نبحث عن الإنسان الأعلى. وهنا تكمن النظرة الطوباوية، التي تهدد الإنسان الأنطولوجي كفاعل .

فالمبدأ الأخلاقي الواقعي (إتيقا المسؤولية) لجوناس. يخالف حتى الأخلاق العقلانية. حيث أن المسؤولية عنده محكومة بالمشاعر. وهي التي تجعلنا نشعر بالمسؤولية اتّجاه الآخرين. لأن الذي يدفعنا هو الشعور وليس السبب في ذاته. فليس هناك مبرر عقلي يجعلني أتحمل المسؤولية اتّجاه شيء لم يوجد بعد، وهو طي العدم. وبالتالي فتأسيس منظومة الأخلاق على العقل وحده زيغ . فجوناس بفكرة المسؤولية هذه، يضرب حتى المنطق ولا يأبه بالتناقض المنطقي في الحكم الأخلاقي. فمثلًا لا يوجد دليل عقلي أو منطقي يثبت أن الحياة على الكوكب ستستمر للأجيال القادمة. وبالتالي قاعدة المنطق تقول يجب الإهتمام بالبشرية الآن. التي هي موجودة. فليس من المنطق أن نضحي بسعادتنا لأجل شيء لم يوجد بعد. لكن جوناس يقلب هذه القاعدة ويضرب بها عرض الحائط. ويؤسس أخلاق قمة في التضحية والإنسانية. ويرى أن الأجيال القادمة تقع على مسؤوليتنا في الحفاظ على الطبيعة (الكوكب) لصالحها. وأنه من غير الأخلاقي أن نستغل كل موارد الطبيعة بحجة خدمة ما هو كائن على حساب ما لم يكن.

"لكي يجعلنا (هانز جوناس) ندرك إدراكًا أفضل معنى هذا التقابل الأنطولوجي المتصل بالمستقبل البعيد. فإنه يقدم لنا أنموذجين متميزين بالدلالة. أنموذج المسؤولية الوالدية. وأنموذج مسؤولية رجل الدلولة. وفي الحالتين، تشمل المسؤولية الوجود التام للموضوع وهي موصولة ومستقبلية" . وهذان النموذجان هما حجة جوناس في تأسيس المسؤولية كبراكسيس. ويخرجه من الانتقاد الذي قد يضم فلسفته ضمن الطوباوية.

ينطلق جوناس من إتيقا المسؤولية باعتبارها طبيعية وأخلاقية. ويضرب لنا مثال بالمسؤولية الوالدية/ الأبوية. حيث أن هذه المسؤولية موصلة لنا بالفطرة، دون إتفاق الوالدين والأولاد. فالطبيعة اقتضت هذا النوع من المسؤولية اتّجاه الأطفال حديثي الولادة . وهذه المسؤولية في نظر جوناس لا تماثلية، "إنها مسؤولية أحادية الجانب. حيث إن مسؤولية الوالدين اتجاه أبنائهم لا تؤسس على نوع من التعاقد، أو التبادل... فنحن في حالة المسؤولية الأبوية نتعامل مع واجب وليس نظيرًا لحق آخر" . وهنا يقارب غيرية ليفيناس فهي الأخرى لا تماثلية ولا تبادلية ولا تقابل بمنفعة. فهي مسؤولية طبيعية. ومنها استنتج جوناس المسؤولية اتّجاه الأجيال القادمة. فالأب مسؤول على الجنين الذي لم يولد بعد. ونحن مسؤولين اتّجاه جيل لم يوجد بعد.

وهناك أيضًا وفق لجوناس مسؤولية أكثر مشابهة للمسؤولية الطبيعية للآباء. وهي مسؤولية رجل الدولة. فمسؤولية رجل الدولة حتى وإن كانت تعاقدية. إلا أنه يتحمل مسؤولية كاملة كما هو حال الأب. فرجل الدولة مسؤول على جميع مواطنيه من احتياجاتهم المادية والثقافية ...إلخ. لأن له القوة التي تسمح بذلك . وبالتالي يرى جوناس أن مسؤولية رجل الدولة تقارب مسؤولية الوالدين. وهي مسؤولية في تصحيح أخطاء الماضي بتعليم جيل جديد. وتحمل المسؤولية اتّجاه المستقبل بالتخطيط والإشراف . إلا أن مسؤولية رجل الدولة أوسع من المسؤولية الأبوية. حيث أنها أكثر شمولية. فمسؤولية الأبوية تقع على العائلة فقط التي لها قرابة الدم والنسب. في حين مسؤولية رجل الدولة تكون شاملة لكل الأفراد دون تمييز. ومن ثمة تكون عالمية. من خلال هيئات عالمية كبرى وهذا ما ينشده جوناس على طريقة كانط، في القول بعالمية الأخلاق وتحمل المسؤولية اتّجاه الإنسانية، بحب الإنسانية.

فهذه المسؤولية التي أعطاها جوناس لرجل الدولة. وتقع على عاتق الفاعل السياسي (بتعبير هابرماس). تجعلنا نحكم أن جوناس لا يتكلم عن المسؤولية بمعناها القديم. في أن يتحمل الإنسان مسؤولية نتائج فعله لأنه حر. بل تتحمل المسؤولية إزاء الأجيال القادمة دون حرية. بل تفرضها عليك الإنسانية. كما أنه يتحدث عن إتيقا المسؤولية التي تتحول إلى براكسيس في ممارسة السياسي اتّجاه الحفاظ على ممتلكات الغير من الأجيال القادمة. وحماية الطبيعة التي هي ملك للغير الذي لم يوجد بعد. لكن هناك من "انتبه إلى الخطورة الكامنة في تشبيه جوناس للمسؤولية السياسية بالمسؤولية الأبوية، كثير من الباحثين، فبرنشتاين ريتشارد حذرنا قائلًا: إن المخاطر الكامنة في اعتبار عناية الوالدين ... عندما تتحول إلى المسؤولية السياسية. فهي الشكل الأمثل لتبرير بأن الحاكم أو الحزب يعرف ما الأفضل بالنسبة للشعب" . لكن جوناس لا يجعل من المسؤولية السياسية للحاكم هي نفسها للوالدين. ولكنه يشبهها فقط. أو يجب أن تكون على منوالها في شقها الإيجابي.

ما يجعل من مبدأ المسؤولية عند جوناس، مبدأ للغيرية هي نتائج الفعل. ذلك أن الغيرية كما بيّنا في التعريف هي ما تفرضه علينا غيرية الغير في احترامه، والمحافظة عليه دون مقابل لصالح الذات. سواء كرفعة أخلاقية أو مصلحة. "إنني أضطلع بالإنسانية القادمة التي لن تقدم لي بالبداهة أي

منحة. وهذه اللاتبادلية في الآمر (اليوناسي)، تشكل عنصرًا مميزًا، ما دام واجبي ليس البتة بالصورة المقلوبة لواجب آخر" .

الخاتمة

نستنتج في الأخير أن إتيقا المسؤولية عند جوناس على وجهين، وذات قصدين. فوجهها الأول: مسؤولية أنطولوجية اتجاه حفظ الوجود، من خلال حفظ الكوكب الذي نعيش عليه. والوجه الثانية: أنها مسؤولية اتجاه الإنسانية لجيل لم يوجد بعد. فهي ليست مسؤولية ليفيناس فقط. والتي تكون بحضور الغير (كائن حي) كوجه يحمل القداسة. وإنما هي مسؤولية شاملة اتّجاه الكائن الحي والجامد. وبالتالي غيرية شاملة. أما المقصدين فالأول: أنها تريد أن تكسر شوكة الإنسان السيد إلى الإنسان الموافق للطبيعة. وهي مهمة الفلسفة. والمقصد الثاني: احترام الآخر الذي لم يوجد بعد. وبالتالي إتيقا المسؤولية للبيئة عند جوناس يدخل فيما يعرف بالغيرية. ويمكن اعتبارها حل للمشكل البيئي الذي يهدد البشرية اليوم. لأن إتيقا المسؤولية اتجاه البيئة لو تقيد بها الإنسان لتجاوز خبيات الأمل التي تهدد الكوكب اليوم.

المصادر والمراجع:

1. Grégoire, T. (2004; 2005). *Technique et Nature, Chez Hanz Jonas.* , Université de Bouak, .
2. Jonas, H. (1984). *the Imperative of Responsibility, in Search of an Ethics for The Technologicol Age.* Paris.
3. Jonas, H. (,1995). *: Le principe Responsabilité, Une éthique pour la civilisation technologique.* (T. :. Greisch, Trad.) Paris.
4. أرنولد توينبي. (1969). *هل للإنسان مستقبل*. (سمير عبده، المترجمون) دمشق: دار دمشق.
5. عايب زهية. (دت). *أخلاق البيئة والمسؤولية عند هانز جوناس*. د ط.
6. وجدي خيري نسيم. (2009). *الفلسفة وقضايا البيئة؛ أخلاق المسؤولية هانز يوناس نموذجًا*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.